دموع باريس

د. حسين مؤنس

رأيتها مرارا قبل أن أعرفها . ولكنها كانت بالنسبة لى شيئا بعيد المنال جدا . كنت أراها كما أنظر إلى نجمات السينما أو لوحات رسمها فنانون كبار : للرؤية فقط الرؤية من بعيد .

كانت جميلة جدا وإن كانت صغيرة الحجم . كانت كأنها دمية جميلة صنعها صانع بمهارة وحب ، وكانت أنيقة : لاتراها قط مرتين فى ثوب واحد ، كانت لديها سيارة حمراء من ماركة اختفت اليوم : النسالدو ، ولكنها فى أيامنا كانت رمزا على الثراء ووفرة المال وأيامها كان الطلاب فى الجامعة لايمتلكون سيارات . كانت الدنيا أفقر بكثير مما هى اليوم .

وكانت نفسى ترتاح لرؤيتها أحيانا . كنت أجلس على أحد مقاهى شارع ميشيل بوفارسان ميشيل أو البول ميش كما يسميه الطلاب ، لكى أراها وهى تخترق بسيارتها مجرد رؤية ، وكان فى هذا كفاية .

وكنا زميلين فى درس واحد ، ولم يكن فى الدرس سوانا . كنا فى المدرسة العليا للدراسات التاريخية فى جامعة باريس وكان الدرس خاصا بصراع البيزنطيين مع البلغار . أما أنا فكنت أدرس الموضوع لأنه يتصل بتاريخ الإسلام ، فقد كان البلغار حتى القرن التاسع مسلمين ، وكان يهمنى أن أعرف كيف تحولوا عن الإسلام . أما هى فما فهمت قط لماذا تدرس هذه المادة الجافة قال لى أستاذنا واسمه الدكتور بيكرمان : إنها بلغارية الأصل وإن كانت اليوم كندية . أهلها هاجروا إلى كندا من زمن طويل . هناك اغتنوا وتعولوا ، وقد أتت إلى باريس لأن عمها وهو ولى أمرها طلب منها أن تدرس فى باريس وتتخصص فى تاريخ بلغاريا . ودولة الروم .

وأضاف الدكتور بيكرمان : ولا أظن أنها ستتدرس من ذلك شيئا . إنها مسجلة فى مادتى هذه من ثلاث سنوات ، ولا أذكر أنها حضرت ثلاثة دروس إنها تحب اللهو والاستمتاع ، وهى تنفق الألوف ولم لا ؟ هناك ناس يولدون سعداء : مال وجمال وشباب .

وكان اسمها استفانيا : ولكنها كانت مشهورة فى السوربون كلها باسم استيق أو استيق الجميلة (استيق لايل) أو استيق المجنونة أو (استيق لا فول) . والمجنون مكروه إلا فى الشابات الجميلات .

وكان الدكتور بيكرمان روسى الأصل ، وربما كان أيضا بلغاريا وكان يعمل فى هذا المعهد فى باريس فى انتظار فرصة الهجرة إلى كندا ليعمل أستاذا فى إحدى جامعاتها فقد كان عم استيق قد تبرع بمال عريض لجامعة البرنا بداخل كندا ، وكان يرشح بيكرمان لكرسى الدراسات البيزنطية . لهذا كان بيكرمان يحب استيق ويعطف عليها ويتحمل من متاعبها الشىء الكثير . وكانت لاتحضر الدرس قط وكان هذا يؤلم بيكرمان . كنت دائما وحدى معه فى الدرس وكان يقول لى : دعها . ستعقل يوما من الأيام . تكرمها لخاطر عمها . ساعدها إذا استطعت اعطها مذكراتك .

– ولكن يا أستاذ إنها لاتكاد تنظر إلىّ .

– ستنظر إليك يوما من الأيام . أنت لاتعرف استيق .

* * *

واقترب الامتحان ، وأعددت نفسى له إعدادا طيبا . وذهبت يوما إلى الجامعة لأدفع الرسوم . وجدتها هناك . كانت فى انتظارى . الأستاذ بيكرمان قال لها إنى سأعمل لها الاجراءات

كلها . تعرف أحدنا إلى الآخر . أعجبنى منها بساطتها ورقى مرحها . بعد أن دفعنا الرسوم وأتممنا كل شىء قالت لى :

– أين نذهب ؟

– كما تشائين .

– نأخذ الشاى فى محل بونس ؟

– كما تشائين .

وبونس كانت قاعة جميلة جدا للشاى . كانت تطل على حديقة اللوكسمبورج . كانت مفروشة بالبسط وكان الشاى يقدم فيها فى أوانى كريستوفل وسيلفر . فى نفسى شىء يحب الفخامة والترف إنه حب الحضارة أحيانا كنت استغنى عن الغداء لكى أوفر شيئا من المال آخذ به الشاى عند بونس .

أعجبنى فيها أناقتها البالغة ورشاقتها التى تملأ النفس مسرة . خلعت معطف المطر الأزرق الحميل وتناوله منها الخادم ، قالت وهى تضحك :

– أنت ضيق .

– لا يليق ..

– لا .. يليق وأنت ضيق ؟

– كما تشائين . أرجو ألا يكون هناك فرق أو تكليف بيننا ..

– لقد حدثنى عنك بيكرمان حديثا طويلا .. ماذا قال لك عنى .. ؟

– لم يقل شيئا كثيرا ولست فى حاجة إلى أن يقول فى أحد عنك شيئا . يخيل إلى أنى أعرفك مما فيه الكفاية .

– غريب .. هذه أول مرة نلتقى ..

– لا .. لقد التقينا مرارا . أصارحك الحق كنت دائما أحب أن أراك من بعيد .. لم أكن أتوقع أن أجلس إليك مرة .. كنت بالنسبة لى شيئا مثل نجوم السينما .. استر وليامز أو أفا جاردنر .. مثلا .. وضحكت ، وجرى الحديث بيننا هونا ، ثم دخلنا فى موضوع الامتحان فقالت :

– قال لى الأستاذ بيكرمان إنك ستساعدنى .

– كل ماتريدين ..

– إن بيكرمان هو ولى أمرى هنا وهو الأستاذ والمراقب والمصحح . فلا بأس علينا من أية ناحية .. أريد أن أقول لاتخف .

– ومم أخاف ؟ قولى : ما المطلوب منى ؟

– اسمع ياسيدى .. على فكرة لماذا لا تنادينى باستيق .. المطلوب منك أن تجلس فى الامتحان على نحو استطيع معه أن أنقل منك .. سأجلس وراءك .. بينى وبينك .. أنا لم أقرأ كلمة ..

– مراقبنا فى الامتحان سيكون بيكرمان ؟

– وهو الذى سيتولى التصحيح .

– إذن فسأفعل كل ماتريدين .. ومبروك مقدما ..

– صدقنى إننى متعبة جدا ..

وبعد لحظة صمت ،

– حياتى لا تعجبنى .. إننى غير سعيدة .. إننى متعبة .. وزن الحياة على أكتافى ثقيل ..

– لم أكن أتصور ذلك .. كنت أتصورك أسعد مخلوقة فى الدنيا ..

– وها أنت ذا ترى حالى .

– لا أدرى إن كنت أستطيع دعوتك للعشاء ..

– إنى مرتبطة .

وهذه الارتباطات هى سبب تعبك .. دعك منها وتعالى معى .. إنى إنسان بسيط سآكل فى تاڤرنا صغيرة فى شارع ليل .

دموع باريس

– سأذهب معك .. لا أدرى إنى مرتاحة لك .. أنت رجل هادىء مطمئن .. تتكلم بهدوء وثقة .. أريد أن آخذ منك شيئا من ذلك كله.

– كوني للمبدئة طيبة ربما شعرت بالسعادة.

– ولعشنا معا ركبت للمرة الأولى سيارة خاصة فى باريس. جلست مع السيق فى الإسالدو. ضحكنا طويلا وتكلمنا كثيرا أوصلها إلى دارها فى سيارتها. إنها تسكن فى شارع كوندية فى ياسى أجمل أحياء باريس.

قالت وأنا أودعها:

تصدق؟ هذه أسعد ليلة قضيتها منذ شهور..

• • •

وجاء يوم الامتحان.. كانت هناك قبل وكانت تتحدث مع الأستاذ بيكرمان. الامتحانات هناك شيء عادى لايشعر به أحد. ليست فيا هذه الرهبة الضيانية التى نحيطها نحن بها هنا. جلست مكانى وجلست هى ورائى لتنقل منى كما اتفقنا. وكتب الأستاذ السؤال على السبورة. واشعل سيجارة ومضى يقرأ كتابا. قرأت السؤال ونظرت إليها كانت تنظر إلى بعين فطنة نحب الدعابة يبدو أن اللعبة اعجبها.

ومضيت أكتب بخط كبير. وتركت الطريق بيني وبين ماأكتبه خاليا لتقرأ وتفعل مانريد. ثم أعدانى مطالب الإجابة فسيت نفسى ونسيتها ومضيت أكتب وأكتب وأنا أحس أنها تنقل ماشاء لها النقل.

قبل نهاية الوقت المحدد بدقائق نهضت ووضعت الورقة على مكتب الأستاذ ومضت مسرعة. بعد لحظات اتانى وأراني ورقة بيضاء ليس عليها إلا اسمها. مع ورقة الامتحان كانت هناك قصاصة تقول فيها: معذرة لم تسمح نفسى بأن آخذ نفسى أو استاذى أو صديق ثم كتبت عنوانها.

هز الأستاذ رأسه وقال:

– امض أنت فى عملك يابنى. مسكينة هذه البنية ولكنها على الأقل تحترم نفسها.

وراجعت إجابتى وسلمت الورقة وقلت للأستاذ:

– تعطيني هذه القصاصة؟ أظن إنها لى.

– إنها لى ولك.. خذها..

وعندما كنت بالباب سألت:

– هل ستذهب إليها؟

– لا أدرى إن كان من حق أن أطرق بابها.

فسكت لحظات ثم قال:

– أنا أيضا لا أدرى. ولكنى أحس أنها فى حاجة إلى عون. هذه الورقة استغاثة فى وبك. أنا شخصيا لا أستطيع الذهاب. أنت تفهم عنى. سيحسون أنى أسعى للوظيفة التى وعدنى بها عمها. ولكنك أنت تستطيع.

– ترى؟ هل أذهب إليها؟

– أعتقد ذلك.

• • •

عندما وصلت ردهة البيت استوقفنى الفخامة. كل ماهنالك كان رخاما وبلاطا وزجاجا ملونا. البوابة سيدة محترمة بدينة لاتفارق السجارة فمها. عندما رأتنى قالت:

– أنا أعرفك.. أنت صديق مدموازيل استيو. مسكينة هذه الأمريكية! كل الأمريكيات اللاتى يأتين باريس مسكينات. عندهن المال والشباب أما العقل فلايعرفنه. باريس تحطمهن جميعا. تعال إلى أين يأتين إلى هنا ليتحطمن.

– ماذا تقولين هذا الكلام؟..

– لأنى حزينة على المدموازيل.. أنت من ساعة تحمل حزن الدنيا كلها. كانت تبكى..

– هى هنا إذن..

– أجل ولكن ربما كانت نائمة أو ربما كانت فى القيراندا البعيدة. عليك أن تدق الجرس كثيرا..

ودققت الجرس حتى تعبت يدى.

كان السلم رحابا فيحا وكان هناك شباك كبير مزين بالزجاج الملون. جلست على السلم ومضت نحو ساعة.

ثم سمعت خطوات داخل الشقة. عدت أضغط الجرس. فتحت الباب رأيتها وعلى وجهها حزن الدنيا كما قالت البوابة. قالت كأنها لم تستغرب مجيئى:

– ادخل.. كنت أنتظرك..

بهرنى فخامة الشقة. كانت واسعة جميلة كل مافيها غالى الثمن. ظللت صامتا أتأمل فعادت تقول:

– ماذا لاتدخل.. ماذا لاترد على

– هل قلت شيئا..

– قلت إنى كنت أنتظرك..

– أحسست بذلك..

– وماذا تأخرت؟

– فى أكثر من ساعة هنا..

– كنت نائمة..

وجلست وأجهشت باكية. تركتها تبكى لأن البكاء راحة ورحمة. كانت بنفس ملابس الصباح ولكنها خلعت الحذاء فبدت كأنها طفلة. نظرت إلىّ طويلا ثم قالت:

– لا تفتح إن ضرب أحد الباب..

– يستحسن أن تقول للبوابة..

– رفعت سماعة تليفون خاص بالبوابة وقالت:

– مدام فولار.. إنى لست هنا.. أيا كان الطارق فلست هنا.. نعم هو هنا..

وفهمت أن العبارة الأخيرة تعنينى.

ثم دهست وأحكمت رتاج الباب وأطفأت النور الكبير. لم يبق إلا الضوء الخافت الهادىء المتراءى عبر نافذة واسعة ملونة.

قلت:

– ماهذا الذى عملت؟

– وهل كان هناك حل آخر؟

– ألم يكن هناك الفاق؟

– لو إنسان غيرك لما ترددت فى النقل منه.. ولكن أنت.. لا أدرى.. لم أستطع أن أفقد احترامك.

– لم أفكر فى ذلك.

– هل كنت ترضى أن أكون عشاشة؟..

– لا.. عندك حق..

– لا أدرى ماذا أطمئن إليك.. من يوم اجتمعنا فى قاعة بولس وانا مشغولة بك.. لا.. لا أقصد ذلك.. أقصد أنى كنت أحس أنى أريد أن أراك..

– وها أنذا بين يديك..

قالت:

– تعال نجلس فى القاعة الداخلية.. أريد أن أقول لك كلاما كثيرا.. إنى متعبة يا.. على فكرة ماذا أناديك.. هل تتصور أنى أجهل اسمك..

– سمى كما شئت..

– ماسمك ؟

– فلان ..

– لايعجبنى ..

– قلت معى كما تشائين ..

– اسمك تيو .. إنه اسم جميل يطل على ضيعتنا فى البرية .. الجبل اسمه تيو جران . وأنا أحبه .. هل يعجبك الاسم ؟

– لايعجبنى .. ولكن الاسم لايهم .. ليكن مانشائين .

– تيو .. إننى ضائعة .. أريد أن أجد نفسى .. أريد أن يجدنى أحد ويدلنى على نفسى .. لاتسخر منى .. إننى غير سعيدة .. عندى كل شىء ولكننى غير سعيدة إننى ضعيفة جدا ..

– أنت لست ضعيفة .. أنت طيبة القلب ..

– أريد رجلا إلى جانبى .. لقد مات أبى وأمى فى حادث سيارة فوق أمرى وأمر أخى معى .. إنه رجل كريم جدا .. أسرف فى تدليلنا وهذه هى النتيجة .. إن أخى أحسن منى ولكننى أنا كارلة ! كل مافعله هو أن أصبح مالى وعمرى .. أربع سنوات فى باريس لم أفعل شيئا .. إننى ضائعة .. خائفة أن أضيع بلا عودة ..

– لن تضيعى ياأستيق .. الدنيا بخير ..

ثم أطالت النظر إلى الفيراندا الواسعة وقالت :

– ماذا أشعر بالاطمئنان إليك ؟ ..

– ربما لأننى أذكرك بعمك ..

– أم أقل لك إن عمى هو الذى ضيعنى ..

– لم تضيعى أبدا ياأستيق ..

– إننى متعبة ياتيو .. لا أريد أن أتركنى .. أريد أن أنام الآن وأصحوا لأجدك هنا .. لابد أن شكلى مخيف .. أريد أن أنام لكى تراقى فى صورة أحسن .. هل تنتظر حتى أنام ..

– نامى كما تشائين .. أنا أيضا متعب .. سأستريح هنا فى هذا الصالون الجميل ..

– حسنا .. هنا فى هذه الطرقة تجد المطبخ على يمينك . الثلاجة والدواليب ملأى بالطعام .. عندك أيضا حمام واسع جميل .. إنه حمام عمى .. دواليبه ملأى بالملابس .. خذ مانريد .. لاتخجل بسببى .. عندى حمام آخر فى غرفتى ..

ثم تثاءبت وقالت :

– إلى قريب ياتيو ..

ومضت ودخلت جناحها وأغلقت الباب .

● ● ●

ووجدت نفسى وحدى فى ذلك البيت الفرنسى الجميل . كل ماكان حولى ينطق بأنه فرنسى . ذوق بديع نرى فيه خط الذوق الفرنسى من أيام لويس الرابع عشر .. حقا إن الحضارة شىء عظيم ..

وسرت إلى المطبخ . كان بالفعل حافلا أكلت مانيسر ثم دخلت حماما كأنه حمام سلطان تركى . غسلت نفسى وفتحت الدواليب ولكنى لم أمس شيئا فيها . كانت حافلة بالملابس : دولاب كامل كله بدلات من كل لون . ودولاب ثلابس البيت داخلية وخارجية . حقا إن الغنى جميل !

وأردت أن أمشط شعرى . ذكرت وصية مدام أليس أديلى رانيدان التى أسكن عندها من زمن طويل : كن دائما فى أحسن هيئة . إتجهت إلى الحمام واخترت قميصا جميلا جدا وأخذت بدلة أيضا . غريب أن الملابس كانت مناسبة لى . خلعت ملابسى ودخلت فى ملابس أهل المال ..

وعدت إلى القاعة الجميلة أردت أن أنام . قبل أن استلقى على الأريكة نظرت إلى دولاب فى غاية الأناقة تقوم عليه المرآة .. هالنى مارأيت قدر هائل من الجواهر والمصوغات : أساور وعقود وأقراط وبنتاليفات .. شىء لم أر مثله إلا فى فترينات الصاغة .. وكانت هناك نقود كثيرة .. ربطات من الفرنكات والدولارات الأمريكية والكندية والجنيهات الإنجليزية .. ونقود ذهبية كثيرة جدا .. لم أمس من ذلك كله شيئا ولكنى وقفت واجما .. وانتابنى خوف .. فإن مثل هذا المال الكثير له رهبة ومسئولية .. ووجوده بمكشوفا معتمرا على هذه الهيئة يبعث على الشك . وهذه البنت أنا لاأعرفها إلا من ساعات .. ومن الممكن جدا أن تجرى بها الظنون فى مايسوؤنى .

تركت هذا الكنز على حاله . ومضيت فاستوثقت من رتاج الباب وقدرت ألا أفتح الباب لأحد حتى تصحو البنت وترى أشياءها .

واستلقيت على أريكة مواجهة للدولاب . ومضيت أشرب الشاى على مهل فى انتظار أن تصحو من نومها .

وكأنما أرادت أن تزيد قلق ومخاوف فنامت طويلا ولم تصح إلا بعد أن هبط الليل . قامت متعثة مستبشرة .

كان أول مافعلته عندما خرجت من جناحها أن نادتنى . فلما رددت قالت : الحمد لله .. الآن أحس أن إلى جانبى رجلا . كم أنا سعيدة لوجودك ..

كانت فى أجمل صورها .. نظرت إليها طويلا فأدركت أنها أفاقت من النوم من زمن . ولكنها أطالت وقتا طويلا فى التجمل . كان شعرها الخريرى مرسلا على جوانب وجهها كأنه خيوط من ذهب . كانت زرقة عينيها صافية كأصفى مايتكون السماء فى اليوم الجميل . كان وجهها الوردى أنيقا يتحدث عن ذوق باريس وفن باريس فى تجميل بنات حواء .. وكانت تضحك كأنها طفلة . وجلست على البساط إلى جوارى وصبت لى الشاى وعندما آنست منها هذه المودة كلها قلت لها :

– قومى وانظرى فوق هذا الكونسول ..

– ماذا هناك .. ؟

– أنظرى أولا ..

وقامت ونظرت وصرخت قائلة :

– ياإلهى .. مصوغاتى . جواهرى .. نقودى ..

ثم انفجرت تجرى وفى عينيها فزع وريبة واتهام !

البقية فى العدد القادم